الفصل السابع

نظرية تصيير التغاير اللغوي حوارياً لدى باختين
Bakhtin's Dialogized Heteroglossia

في العام ١٩٦٨ بدأ القارئ الأمريكي في التعرف إلى ميخائيل باختين (١٨٩٥– ١٩٧٥) عندما ظهر عمله المعروف "دور الألعاب في أعمال رابليه"[١] "Role of Games in Rabelais" في إحدى مجلدات سلسلة Yale French Studies التي كانت مخصصة للحديث عن الحبكة والمسرح والأدب. وعلى الرغم من أن باختين قد كتب معظم أعماله في فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، فإن القاري الغربي لم يبدأ في الإطلاع عليها إلا في السبعينيات من ذلك القرن.

وقد قُورنت مساهمة باختين في حقل العلوم الإنسانية وخصوصاً في مجال النظرية الأدبية بأعمال كل من (بارت، ١٩٧٢، ودريدا، ١٩٨١، ليفي ستراوس، ١٩٧٢) (Barthes, 1972 & Derrida, 1981 & Lévi–Derrida, 1972) وعند الأخذ بعين الاعتبار كون تلك الأسماء من أعظم مفكري القرن العشرين، يصاب المرء بالخيبة من عدم إعطاء أفكار باختين القليل من الاهتمام من قبل الباحثين في مجالي اللغويات واكتساب اللغة الثانية، ويمكن تفسير أو تبرير افتقاد باختين للشهرة من خلال طريقته المعقدة في الكتابة.

---

(١) فرانسوا رابليه هو كاتب فرنسي أشتهر بتوظيف الفكاهة في أعماله الأدبية.

لقد كان باختين يميل إلى تدوين أفكاره وما يفكر فيه. ويبدو أن كتاباته وترجمات أعماله تعكس هذا النمط المحدد من الكتابة حيث إن الخلفية الواسعة التي كان يمتلكها في مجال الأدب قد تفسر بشكل أفضل سبب عدم دراسة أفكاره من قبل الباحثين في مجال اكتساب اللغة الثانية. وإذا ما كنا نرغب في تفهم مدى عمق و أصالة أفكار باختين فإننا في حاجة لأن نكون على اطلاع مكثف على الأدب الروسي (تحديداً تولستوي وبوشكين ودوستوفيسكي وكذلك غوغل) إضافة إلى الأدب الفرنسي والألماني والإنجليزي واليوناني الكلاسيكي والروماني. كما أن أعماله تعكس الخلفية الراسخة التي كان يمتلكها في مجال الفلسفة وخصوصاً فلسفة كانت. ولذلك فإنه يمكن اعتباره فيلسوف لغة إضافة إلى كونه ناقداً أدبياً ولغوياً.

وعلى الرغم من معرفة باختين الجيدة بعلم اللغويات في وقته وكذلك المدرستين البنيوية والشكلية الروسيتين، فإنه عبّر عن رفضه للمبادئ الأساسية التي تقوم عليها هاتان المدرستان فقد كان يعترض على إصرار هاتين المدرستين على الفصل بين اللغويات على مستوى الجملة واللغويات على مستوى اللفظ وهذا الفصل الذي كان دي سوسير قد بدأ في المناداة به. وكما أُشير إليه في الفصل الخامس، فإن سوسير (١٩٥٩) قد قسّم اللغة إلى نطاقين: نطاق اللغة المتمثل في الأشكال والتراكيب اللغوية ، ونطاق الكلام المتمثل في استخدام اللغة في سياقات الحياة الفعلية. ويمكن النظر إلى نطاق اللغة على أنه اللغويات على مستوى الجملة فيما يمكن اعتبار الكلام على أنه اللغويات على مستوى اللفظ.

ولم يكن باختين يتفق مع تعريف سوسير للتلفظ على أنه "فعل فردي" وعلى أنه "دمج حر بشكل كامل للأشكال اللغوية" (Bakhtin, 1986, 81) وكان يرى أن سوسير "يتجاهل حقيقة أنه إلى جانب وجود أشكال لغوية، توجد هناك أشكال دمج لهذه الأشكال أي أنه يتجاهل الأصناف الكلامية" (المصدر السابق).

هذا الأمر يأخذنا إلى أهم مساهمات باختين في فهمنا لماهية اللغة إذ يُعد مثل هذا الفهم أساسياً لقدرتنا على استكشاف تأثيرات اللغة كنظام إشاري هو الأكثر توسيطاً في تطور الوعي الإنساني: المعرفة الإنسانية. في هذا الصدد يمكن اعتبار أعمال باختين متممة لأعمال فيجوتسكي.

وكما هو الحال مع فيجوتسكي، لم يكن باختين ينظر إلى اللغة على أنها لا تعدو كونها منظومة مجردة من التراكيب اللغوية – المعجم، والصرف، والتراكيب – بل على أنها كلام. وقد قام باختين بمقارنة الوحدة المكونة للكلام بالوحدة المكونة للغة كتركيب فالتلفظ هو وحدة الكلام والجملة هي وحدة اللغة حيث الجملة تمثل هدف التحليل اللغوي والذي كان يقف منه باختين موقفاً نقدياً حاداً كونه يقرن بشكل متكرر فيما بين الجملة واللفظ والهوس بإيجاد التجريد (أي نظام إشارات مجرد وعشوائي) الذي يتم فيما بعد تحليله "كصورة عامة" لما تتضمنه المعرفة اللغوية.

ويقدم باختين وصفاً مفصلاً لوحدة التركيب الأساسية للكلام المتمثلة في التلفظ. ويمتلك التلفظ على عكس الجملة الخصائص التالية: أولاً، لأي تلفظ حدوده التي يرسمها "تغيير ما في المتكلمين" (١٩٨٦: ٧١). أما الخاصية الثانية فتتمثل في اكتماله والتي تعني تأكيد وجود استجابة للتلفظ متمثلة في ما يشبه التفاعل معه. وترتبط هذه الخاصية مع مفهوم "المُخاطبة" والذي يُعرّفه باختين على أنه "لكل تلفظ دائماً مُخاطب (متعدد الأشكال وذي درجات متنوعة من المُقاربة والتماسك والاطلاع وما إلى ذلك) وهذا المُخاطب هو من يبحث مؤلف العمل الكلامي عن تفهمه الاستجابي ويتفوق عليه. وهذا هو الطرف الثاني (مرة أخرى ليس بشكل حسابي). غير أنه إضافة إلى هذا المُخاطب (الطرف الثاني)، فإن الناطق بالتلفظ، مع درجات متنوعة من الإدراك، يفترض وجود مُخاطب أعلى (الطرف الثالث)

الذي يُفترض أن يكون وجود فهمه الإستجابي غير قابل للنقاش إما في مساحة غيبية ما وإما في زمن تاريخي بعيد (١٩٨٦ : ١٢٦).

هذ الاقتباس السابق يدل على أن التلفظ لا الجُملة (وهي التي تمثل تجريداً منزوع السياق للتلفظ) يفترض نتيجة خاصيته الثانية – الاستجابية – علاقة حواريةً بين المتكلم والمُخاطب. ولذلك فإن كل تلفظ يستدعي ثلاث كينونات: المتكلم، والمُخاطب الذي كان التلفظ مُوجهاً له (بغض النظر عما إذا كان المُخاطب موجوداً أو "خفياً" كما هو الحال مع أجيال المستقبل التي كان التلفظ موجهاً لها) والمُخاطب الأعلى متمثلاً بالله سبحانه وتعالى، الذي يفهم (سبحانه) بشكل كامل المقصد الكامن خلف التلفظ ومعناه أيضاً. ويبدو أننا في حاجة إلى مُخاطب أعلى، الطرف الثالث، لأن مختلف تجاربنا في أجناس الكلام وتنوع درجات براعتنا في هذه الأجناس الكلامية لا يمكن للطرف الثاني أبداً أن يستوعبها بشكل كامل. ومن دون مفهوم "المُخاطبة" الذي ينادي به باختين والمُعرّف على أنه "جودة التحول إلى شخص ما" (١٩٨٦ : ٩٩) والذي لا يُفترض وجوده في جملة ما بل في التلفظ، فإنه لا يمكن للتلفظ أن يكون موجوداً.

لاحظ هنا أن خصيصة التلفظ الثانية المتمثلة في المُخاطبة والاستجابة ربما جاءت على عدة أضرب، وحتى على هيئة أي شيء يمكن أن يُستجاب له مهما تنوعت درجة طول وحجم هذه الاستجابة. إن تعجباً ما أو إيماءةً ما أو سؤالاً ما أو حرفاً ما أو عملاً أدبياً طويلاً ما تنتمي كلها إلى فصيلة التلفظ كوحدة تواصل كلامي سهلة. يقول باختين: "أيما تلفظ – بدءاً من (كلمة واحدة) قصيرة يتم تضمينها في الحوار اليومي وإنتهاءً بالرواية الضخمة أو الأبحاث العلمية يحتوي على بداية مطلقة ونهاية مطلقة وتسبق بدايته تلفظاتُ الآخرين وتعقب نهايته تلفظات الآخرين

الاستجابية (أو فهم الآخرين الاستجابي الفعال رغم كونه يتسم بالصمت [١] أو في النهاية ردة فعل استجابية بناءً على هذا الفهم" (١٩٨٦ : ٧١).

وتبعاً لما يراه باختين، فإنه ونظراً لوجود العديد من الإدراكات للتلفظ – التباين في صيغ التلفظ – فإن علم اللغويات قد استغنى عن التلفظ وأعطى ولاءه وبشكل كامل لوحدة اللغة المتمثلة في الجملة والتي تُعتبرُ أكثر اتساقاً وأكثر محدودية في الصيغة. وعلى الرُغم من تباين أشكال التلفظات، فإن باختين يؤكد على أن التلفظات التي لا يُوثق بها كثيراً ويتم تجنبها من قبل أتباع لغويات دي سوسير بالإمكان دراستها لأن كل تلفظ يمكن تعقبه إلى جنس كلامي معين. وفي هذا الصدد يقول باختين: "يتميز كل تلفظ منفصل بإنه بالطبع فردي غير أن كل مستوىً تُستخدم اللغة داخله يقوم بتطوير أنماطه الثابتة بشكل نسبي من هذه التلفظات. وهي ما قد نسميها *أجناس الكلام*" (١٩٨٦ : ٦٠). إن الجنس الكلامي "ليس ضرباً من ضروب اللغة غير أنه نموذج تقليدي للتلفظ ؛ ولذلك فإن الجنس الكلامي يحتوي أيضاً على نوع تقليدي معين من التعبير الذي يتأصل فيه. وفي الجنس الكلامي تكتسب الكلمة نوعاً تقليدياً معيناً. وتتوافق أجناس الكلام مع أوضاع ممثلة بشكل تقليدي للتواصل الكلامي والمواضيع التقليدية وبالتالي تتوافق مع تواصلات معينة فيما بين معاني الكلمات والواقع الفعلي الصلد في ظل ظروف تقليدية معينة" (٨٧).

وعلى الرغم من تنوعها، فإنه يمكن تقسيم أجناس الكلام إلى مجموعتين رئيستين اثنتين: أولية، وثانوية. وتضم المجموعة الأولية المحاورات اليومية، والروايات والمذكرات اليومية، والرسائل فيما تضم المجموعة الثانوية القصص والمسرحيات وجميع أنواع البحث العلمي. إن أصناف الكلام تمثل "تواصلا ثقافياً

(١) غير ملفوظ.

متطوراً ومنظماً وأكثر تعقيداً (كتابي بشكل أولي) وهو تواصل فني وعلمي واجتماعي سياسي وهكذا دواليك" (باختين، ١٩٨٦ : ٦٢) (Bakhtin, 1986, 62)، وبشكل ثانوي، تنشأ أصناف أكثر تعقيداً من رحم الأصناف الأولية التي تم تذويتها وتحويلها إلى أصناف ثانوية.

لكن لماذا يبدو أمر دراسة هذه الأجناس ضرورياً؟ السبب هو لأننا نتكلم على شكل أجناس كما يرى باختين ؛ "فأجناس الكلام تنظّم كلامنا" (١٩٨٦ : ٧٨). إننا لا نتعلم اللغة من خلال تعلم تمثيلاتها المعجمية والصرفية والتركيبية ولكن من خلال التعرض إلى مجموعة متنوعة من أجناس الكلام. وهو يقول في هذا الصدد "لو لم تكن هناك أجناس كلام ولو لم نكن متمكنين منها بشكل ممتاز، ولو أنه كان يتعين علينا إيجاد هذه الأجناس خلال العملية الكلامية وإيجاد كل تلفظ للمرة الأولى، لكان من الاستحالة وجود تواصل كلامي" (٧٩). إن صلة قريبة للتلفظ مع جنس كلامي ثابت على الضرب الذي تم وصفه في الاقتباس السابق يمثل الملمح المُميز الثالث للتلفظ. ويجدر هنا التذكير بأن الملمح الأول يتمثل في تغير المتكلم واكتماله فيما يتمثل الملمح الثاني في المُخاطبة ومدى الاستجابة.

وفي حالة نطقنا بالتلفظ، فإننا لا نقوم بتوليد هذا التلفظ للمرة الأولى فنحن لسنا "المتكلم الأول الذي يزعج الصمت المطلق للكون" (٦٩). نحن وبكل يُسر نختار شخصياً جنساً كلامياً معيناً يستضيف بشكل تقليدي نوعية الكلام الذي نرغب في نقله إلى الآخرين سواءً تم ذلك بشكل واع أو غير واع. ولذلك فإننا لا نتكلم بصوت واحد بل بعدة أصوات. كما أن الكلام لا ينتمي إلينا بل إلى الآخرين قبل أن يتم جعل الكلام مناسباً وملائماً من قبلنا. ويعتبرُ باختين اللغة شيئاً حيّاً ولأنها كذلك فهي تعكس وتحدد في الوقت نفسه السياقات المختلفة التي تم استخدام هذه اللغة

فيها. وتقع اللغة دائماً "على الحد الفاصل بين النفس والآخر. فالكلمة في اللغة يمتلك الطرف الآخر نصفها. وهي لا تصبح في ملك الشخص بشكل كامل إلا في حال ملئه للكلمة بمقصده وطريقته في تلفظها وعندما يقوم بجعل الكلمة مناسبة وملائمة ويقوم بتكييفها لتناسب مقصده الدلالي والتعبيري. وقبل أن يتم جعل الكلمة مناسبة وملائمة، فإنها لا تظهر في لغة حيادية وموضوعية (فالمتكلم لا يأتي بكلماته من قاموس في كل الأحوال!) بل هي تظهر في أفواه الآخرين وفي سياقات الآخرين لتخدم مقاصد الآخرين؛ ومن ذلك المصدر يتعين على الشخص أن يأخذ الكلمة ويجعلها خاصةً به" (باختين، ١٩٨١: ٢٩٣-٩٤) (Bakhtin, 1981, 293-94).

ولذلك، يظل التلفظ دوماً في علاقة *حوارية* مع الألفاظ الأخرى التي تسبقه ومع الأصوات الأخرى التي نطقت به من قبل أن نقوم بجعلها مناسبة وملائمة. وبالرغم من أننا نتكلم بعدة أصوات، وهو ما يطلق عليه باختين مصطلح *التغاير اللغوي* فإن إمكانية التعرف على هذه الأصوات ودراستها تحدث نتيجة ارتباط هذه الأصوات مع نوع محدد من أجناس الكلام. وتمتلك أجناس الكلام هذه "أهمية معيارية بالنسبة للمتكلم فهو لا يتلفظ بهذه الأصناف بل يتم تقديمها إليه" (١٩٨٦: ٨٠-٨١)، وتشير هذه المقولة ضمناً إلى وجود حد معين للطابع الفردي للتلفظ فقلة التعرض إلى جنس كلامي معين وعدم الإلمام به لا يمكن التعويض عنهما بمعرفة الشخص الفردية للقواعد المعجمية والصرف-تركيبية. وهذا ما تثبته عدم مقدرة المتحدث الأصلي للغة ما على أداء وظائف كلامية معينة يتميز بها جنس كلامي ما على الرغم من إمكانية اعتبار هذا المتحدث الأصلي مثقفاً بشكل جيد. ويقول باختين ما نصه: "يحدث بشكل متكرر أن يظل الشخص الذي يمتلك مقدرة ممتازة على الكلام في بعض مجالات التواصل الثقافي والقادر على قراءة بحث علمي أو

الدخول في نقاش علمي وممن يتحدث بشكل جيد في المسائل الاجتماعية أن يظل صامتاً أو مُحرجاً في الحوارات الاجتماعية " (١٩٨٦ ، ٨٠).

إننا في حاجة لأن نستغني عن عملية الفصل الصارمة بين تلك النظرة للغة على أنها نظام مكون من خصائص نحوية نظرية ومجردة وتلك النظرة للغة على أنها كلام. وعلى الرغم من أن الشفرة اللغوية تقدم بعض الأسس الضرورية للتواصل، إلا أنها لا تفسر لنا بشكل كامل طبيعة التواصل الكلامي الإنساني والذي يرى فيجوتسكي أنه يرتكز على أجناس الكلام "ولذلك، فإنه لا يتم إعطاء متحدث ما الصيغ الإلزامية للغة القومية فقط (التركيب المعجمي ،والتركيب النحوي)، بل ويتم إعطاؤه أيضاً صيغ الألفاظ الإلزامية ؛ أي أجناس الكلام" (١٩٨٦ : ٨٠).

وما يحدد كل جنس كلامي هو "تصوره التقليدي الذاتي للمُخاطبين" (١٩٨٦ : ٩٥) . وتؤثر كيفية رؤية المتكلم للمُخاطب وكذلك تصور المتكلم الحقيقي والخيالي للمُخاطب على اختيار المتكلم لأصناف الكلام. كما أنه بالإمكان أن يؤدي هذا الأمر إلى إيجاد جنس جديد كما هو مثبت في تطور التخاطب عبر الرسائل الإلكترونية وهو نوع من التخاطب الذي تسبب "القرب" التخيلي بالنسبة للمُخاطب في إيجاد نموذج وصيغة كتابية يتميز بها التواصل عبر شبكة الإنترنت.

ويرى باختين كما أشرنا من قبل إلى أننا نتكلم فقط على هيئة "أجناس كلام محددة، بمعنى أن ألفاظنا جميعها لها صيغ تقليدية ومحددة بشكل نسبي لإيجاد الكل" وقد لا نكون حتى على علم بها: "ومثل السيد جورداه في مسرحية موليير الذي عندما كان يتكلم بصيغة نثرية لم يكن لديه أدنى علم بما كان يفعله، فإننا نتكلم على هيئة أجناس كلام متنوعة من دون أن نشكك في وجود هذه الأصناف" (١٩٨٦ : ٧٨).

ويرى باختين أننا لا نقوم بالتكلم على هيئة أجناس كلام فحسب بل إننا نسمع على هيئة أجناس كلام، وهكذا لم يكن التواصل الإنساني ممكناً من دون أجناس الكلام هذه. ويقول "إننا نتعلم إلقاء كلامنا على هيئة أجناس وعندما نستمع إلى كلام الآخرين نقوم بعملية تخمين صنف ذلك الكلام من بدايته الأولى كما أننا نتوقع طولاً معيناً (أي الطول التقريبي لمدة الكلام بشكل كلي) وتركيبا تعبيرياً معيناً، كما أننا نتنبأ بالنهاية أي أنه يتكون لدينا من البداية إحساس بالكلام ككل واحد وهو إحساس يتم تمييزه فقط فيما بعد خلال عملية الكلام" (١٩٨٦ : ٧٩).

وتتميز الأصوات والأجناس الكلامية لدى باختين بأنها دوماً في علاقة حوارية، وفي الحقيقة تمثل العلاقة الحوارية جوهر نظريته الأدبية، فهو يرى أننا "نتكلم" فقط على صيغة حوار، حتى لو كنا نتحدث مع أنفسنا كما هو الحال في المناجاة حيث إننا نتحدث على صيغة حوار. والحوار الذي يشير إليه باختين ليس مرادفاً للمعنى التقليدي للحوار الذي يفترض وجود مُتحَدِّثين يتبادلان الدور في الإتيان بالتلفظات؛ فكل تلفظ وكل صوت يكون في علاقات حواريه متعددة مع التلفظات والأصوات الأخرى في النص ولكن وبما أن ٥٠٪ من الألفاظ والكلمات تنتمي إلى شخص آخر، فإن هذه العلاقة الحوارية تمتد إلى المالك الأصلي للفظ والسياق الاجتماعي والثقافي والمؤسسّي الذي وُضعت فيه في الأصل.

ويرى باختين أن اللغة (أي الكلام) تعتمد على الحوار لا على المناجاة الفردية؛ وبشكل أكثر دقة، ليس هناك مناجاة أو حوارات ذاتية في التواصل الكلامي لأننا نتوجه بألفاظنا إلى شخص ما، وحتى في حال تحدثنا إلى أنفسنا أثناء مناجاة ما فإننا في الحقيقة ندخل في حوار مع المُخاطب "المُتخيل" ونعدل طريقتنا الكلامية بحسب رؤيتنا وانطباعنا للقوة، والمكانة والمنزلة الخاصة بالمُخاطب

الخفي، فنحن منغرسون في العديد من أجناس الكلام التي كنا قد اكتسبناها طوال سنين حياتنا؛ نحن جميعا "متكلمو لغات مختلفة". وهو يقول في هذا الصدد ما نصه: "لذلك فإن مزارعاً أُمّياً ما، يعيش بعيداً عن أي مركز حضري ومنغمس بشكل بسيط في روتين حياة يومي مستقر وساكن، ورغم ذلك فإنه عاش في عدة أنظمة لغوية إذ تعبد إلى ربه بلغة واحدة، وغنى الأغاني بلغة أخرى وتحدث إلى عائلته بلغة ثالثة وعندما بدأ في تقديم التماساته إلى السلطات المحلية عبر أحد الناسخين، حاول التحدث بلغة رابعة (لغة المتعلمين الرسمية، لغة الورق). كل هذه تمثل لغات مختلفة حتى من وجهة نظر مؤشرات لهجاتية اجتماعية نظرية"(١٩٨١: ٩٦-٢٩٥). ولا يتم أبداً نطق تلفظاتنا في عالم كوني خاوٍ أو فارغ بل إنها مرتبطة على الدوام بأصواتٍ أخرى تؤدي بدورها إلى استحضار سياقات ثقافية - اجتماعية ومؤسسية مختلفة كانت هذه الأصوات أُكتسبت فيها. وتنص هذه النظرية على أن كل الكلام هو متغاير لغوياً.

وبحسب باختين، يحتوي الكلام على قوتين اثنتين تعملان بشكل متوافق ومتزامن: قوة جاذبة وقوة طاردة؛ فقوى الجذب تتحرك باتجاه التوحيد والنظام؛ وتُمثل أنظمة اللغة الأصلية النحوية والصوتية الوظيفية مثالين لهذه القوة. ويقدم باختين الوصف التالي لهذه القوى المُوحِدّة: "تُكّون اللغات المتوحدة التعبير النظري لعمليات التوحيد والتركيز اللغوية التاريخية وهو ما يمثل تعبيراً عن قوى اللغة الجاذبة. وأي لغة متوحدة ليست شيئاً يتم إعطاؤه بل هي في الجوهر شيء بديهي وهي في كل لحظة من حياتها اللغوية في تعارض مع واقعيات التغاير اللغوي، غير أنها في الوقت نفسه تجعل حضورها الحقيقي محسوساً كقوة تتغلب على هذا التغاير اللغوي فارضةً حدوداً معينة عليها مع ضمان حدٍ معينٍ من التفاهم المتبادل والتشكل كوحدة واقعية

حتى وإن كانت بثقل نسبي وحدة اللغة الأدبية – لغة الحوار اليومي المسيطر ولغة القراءة أو "اللغة الصحيحة" (١٩٨١ : ٢٧٠). وعلى الرغم من أن القوى الجاذبة تتجه صوب نظام واحد موحد مكون من المعايير اللغوية، فإن هذه المعايير "لا تشكل أوامر فرضية مجردة، بل هي قوى التوليد للحياة اللغوية وهي تلك القوى التي تكافح من أجل التغلب على التغاير اللغوي للغة" (المصدر السابق).

أما القوى الطاردة فتميل للتحرك صوب الاختلاف والتغاير، والمعارضة والتنوع. يقول باختين: "بمحاذاة القوى الجاذبة، تقوم قوى اللغة الطاردة بعملها المستمر من دون انقطاع. وبمحاذاة التوحيد والتركيز اللفظي الأيديولوجي، تستمر قوى التشتيت وعدم التركيز في العمل دون انقطاع" (١٩٨١ : ٢٧٢).

وقد نحصل عبر آلية عمل قوى الطرد على تفسير لسبب تعطل التواصل فيما بين اثنين من متحدثي اللغة الأم نفسها في وسط نفس القوى الجاذبة الموحدة والمركزة للغة (أي التحدث بالشفرة اللغوية نفسها).

وتظل القوى الطاردة الأقوى بين هذين النوعين من القوى، وفي هذا الموقع تحديداً وضع باختين نظرية تصيير التغاير اللغوي حوارياً[1] الخاصة به (١٩٨١ : ٢٧٣) أو نظريته المعرفية التي تسعى لتقديم تفسير للسلوك الإنساني من خلال المفهوم الحواري للغة. وتمثل نظرية تصيير التغاير اللغوي حوارياً أساس فلسفة باختين المعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية فهي تبتعد عن معايير المدرسة المعرفية المحددة بوضوح من خلال إظهار علاقة حيوية بين عالمي الفرد الداخلي والخارجي. وبالنسبة لباختين، تمثل النفس عملية مزج حيوية لهاتين القويتين – الداخلية والخارجية –

(١) التغاير اللغوي أو التنوع في كلام الآخرين هو مفهوم أتى به باختين لوصف تعدد الأصوات التي يتضمنها نص ما أو بشكل آخر هو وصف لتعدد اللغات في ثقافة ما.

وهي العملية التي يتم توسيطها عبر الكلام على هيئة حوار. وفي دائرة الحوارية، تظل النفس الفردية نسبية على الدوام (هولكويست، ١٩٩٠) (Holquist, 1990)، وهي كذلك لأن النفس الفردية لا يمكن عزلها وتحويلها إلى حالة مجردة من قبل الأصوات الأخرى التي قابلها الفرد طوال حياته. إن اكتشاف النفس الفردية ما هي إلا عملية اكتشاف للعلاقة الموجودة بين واقعي الفرد الداخلي والخارجي المُوسطّين عبر كلام مُصور على أنه حوار.

ولكن ما هو السبب في أهمية باختين في النقاش الخاص بفيجوتسكي؟ إن أفكار باختين مكملة لأفكار فيجوتسكي عبر تزويدنا بتحليل مفصل للجنس الكلامي. إن فيجوتسكي يؤكد على أهمية الكلام في التطور المعرفي الإنساني والذي يتم زيادته داخل حدود منطقة النمو المقارب ويتم إيجاده في عملية التفاعل فيما بين المتعلم والمدرس الأكثر قدرة في سياق ثقافي اجتماعي أو مؤسسي واقعي. وعلى الرغم من تأكيد فيجوتسكي على أهمية الكلام للتطور المعرفي الإنساني، فإن نظريته الثقافية - الاجتماعية لا تبحث في خصائصه، أي خصائص الكلام في سياق ثقافي اجتماعي معين، وهي الفجوة التي تسدها أعمال باختين هذه.

إضافة إلى ذلك، فإن ما قام به باختين فيما يخص دراسته لأجناس الكلام يدعم بشكل مباشر قانون فيجوتسكي الجيني بخصوص التطور الثقافي الذي يؤكد على أن كل وظيفة عقلية إنسانية تحدث مرتين؛ الأولى منهما تحدث على المستوى الجمعي ومن ثم على المستوى الفردي الذاتي. وتؤكد أفكار باختين فيما يخص أصناف الكلام والعلاقات الحوارية للألفاظ والتغاير اللغوي على صحة نظرية فيجوتسكي الثقافية- الاجتماعية. ولم ينادِ أيٌّ من باختين أو فيجوتسكي بفصل اللغويات على مستوى الجملة عن اللغويات على مستوى اللفظ وهي التي عُرفت

فيما بعد بفضل تشومسكي (١٩٦٥) على أنها الفصل بين الإنجاز اللغوي والكفاية اللغوية. وكما أشرنا في الفصل الخامس فإن هذا الفصل لا يزال موجوداً في مجال اكتساب اللغة الثانية حيث ينتمي إليه الكثيرون من الباحثين بشكل قوي.

وكما هو الحال مع فيجوتسكي، لم يكتف باختين فقط بالدعوة إلى التخلص من هذا الفصل غير المبرر والعتيق بل وطالب أيضاً بتحويل اهتمامنا من الكفاية اللغوية إلى التواصل الكلامي حيث تقع جذور المعرفة والتواصل واللغة الإنسانية. كما أنه حث على البحث في الطبيعة المعقدة للعلاقة فيما بين اللغة كنظام مكون من القواعد واللغة كجنس كلامي.

وبشكل ملخص، فقد تعامل باختين، كما هو الحال مع فيجوتسكي، مع اللغة على أنها كلام لا على أنها مجموعة مجردة من القواعد. ويرى باختين أن آلية إنجاز الوظائف العقلية الأعلى رتبة ليست فقط كلاماً *داخلياً* فحسب من وجهة نظر فيجوتسكي بل هي أيضاً *حوار* داخلي[1] وهذا الحوار الداخلي يمثل حوار الشخص مع نفسه، غير أنه ونتيجة لكون ذات الفرد مؤسسة في أصوات الآخرين، فإن هذا الحوار الداخلي يمثل الحوار مع الذات ومع الآخرين بشكل متزامن.

وقد اقترح باختين علم معرفة جديد هو "تصيير التغاير اللغوي حوارياً" والذي يمثل "نظريةَ معرفةٍ موجهةٍ ذرائعياً، أو بشكل محدد أكثر، هي مجرد واحدة من علوم المعرفة الحديثة التي تهدف لأن تصل إلى فهم معين للسلوك الإنساني عبر استخدامهم البشري للغة. إن مكانة نظرية باختين المميزة فيما بين هذه العلوم المعرفية يحددها المفهوم الحواري الذي يقترح باختين أهميته التي لا غنى عنها". (هولكويست، ١٩٩٠: ١٥) (Holquist 1990, 15).

---

(١) أي ذاتي الصبغة.

وقد كان باختين يرى أن حقول اللغويات وفلسفة اللغة والأسلوبية تميل بشكل تفضيلي واضح نحو دراسة القوى الجاذبة – المُوحدة والمركزة – للغة مع تجاهل كامل تقريباً للقوى الطاردة، وهي التي ضمّنها باختين عملية تصيير التغاير اللغوي حوارياً. وقد نادى باختين بمنهج جديد مع اللغة لا يبحث عن "التوحيد عبر التنوع" (١٩٨١ : ٢٧٤)، ولكن عن طريق محاولة فهم ودراسة اللغة من وجهة نظر طاردة، ومن وجهة نظر أجناس الكلام. كما أنه نادى بدراسة السلوك الإنساني من وجهة نظر تصيير التغاير اللغوي حوارياً حيث تنشأ وتظل اللغة الإنسانية كنظام متعدد الأصوات وكذلك النمو المعرفي الإنساني.

obeikandl.com